

قياس وفيات المهاجرين وحالات اختفائهم

أندريا غارثيا بورخا وجوليا بلاك

كثيرة هي المُتحدّيات التي تعوّق توثيق وفيات المهاجرين واختفائهم، على أن ما يمكن فعله لتحسين استيعاب هذه المعطيات وإتمامها كثيرٌ أيضاً.

ويشير التعريف الذي أتى به مشروع المهاجرين المفقودين إلى كل شخص مات (أو فقد ويُظنُّ موته) في أثناء الهجرة إلى مقصد دولي، مهماً تكن حالته القانونية. وأما من مات من المهاجرين أو فقد في غير الهجرة فلا يُدخلون في قاعدة المعطيات، مثال ذلك من يقيم في بلد أجنبي. ويُستبعد مشروع المهاجرين المفقودين أيضاً الوفيات التي تحدث في مراكز حجز المهاجرين، وفي المستوطنات مثل مخيمات اللاجئين، والوفيات التي تحدث بعد الإبعاد. وقد وُضع هذا التعريف خصيصاً لتحديد احتمال الأخطار التي تحف برحلات الهجرة غير النظامية.

ومن أصناف المهاجرين المفقودين التي ما ورد ذكرها في التعريف الذي وضعه مشروع المهاجرين المفقودين هي كثرة من المهاجرين الذين يُقطع الاتصال بينهم وبين أعزائهم. وقد يكون هؤلاء أحياء ولكنهم حيث لا وسيلة لهم للاتصال بأسرهم، أو قد يقصدون أن لا يتصلوا مخافة الإبعاد أو غيره من العواقب.

صحيح أن اعتماداً تعريف ضرورة لابتداء جمع المعطيات في أمر من الأمور، ولكن قد ينشأ من أيضاً سوء العاقبة. مثال ذلك: أن استبعاد الوفيات التي تحدث في ماوي المهاجرين أو مخيمات اللاجئين أو في أثناء الحجز قد يؤدي إلى تصوّر أن المهاجرين في مثل هذه الأمكنة آمن من الذين ما يزالون ينتقلون. وأيضاً فقد يُضيّق من لا يعلم منهجية مشروع المهاجرين المفقودين نطاق جمع المعطيات عن وفيات المهاجرين ويحط معيارها. فهذا أمرٌ حمال مشكلات ولا سيّما حين تستعمل وسائل الإعلام الأرقام التي ينشرها مشروع المهاجرين المفقودين وهي ليس عندها من المعلومات الأساسية إلا الشيء القليل، وحين تُعرض معدلات الوفيات ولا تُفسّر طريقة حسابها.^٣

ويضاف إلى ذلك، أن تحديد وقت وقوع الوفاة «في أثناء الهجرة» أمر فيه مشكلات ومصاعب. ويدخل في معنى فكرة العبور في العموم العارضية (كون الشيء عارضاً غير باقٍ)، فلا تدل على شيء من طول رحلة الهجرة أو وجهتها أو اتصالها. ففي منهجية مشروع المهاجرين المفقودين يُفترض أن العبور مُتصل عموماً، ولكن الواقع أن المهاجرين يكثر أن

يحاول النَّاسُ الهجرة إلى بلدان أخرى فيغرقون في قنوات ماء الصّرف الصحيّ، ويموتون بالبرد في الغابات القاصية؛ ويموتون بالتّجفاف والجوع بعد أن يصيب مركباتهم خلل في عرض الصحراء. فُيعيّن توثيق وفيات المهاجرين وحالات اختفائهم على منَع هَمَلِيَّة هذه المآسي، ثم إن جَمَعَ هذه المعطيات وتحليلها ونشرها مفيدٌ في حملات المناصرة، فُيعلم سياسات الهجرة القائمة على الأدلة، ويُحسّن التخطيط التنفيذي.

ومع ذلك، جمع معلومات الوفيات في طريق الهجرة صعبٌ لعدّة أسباب. إذ يجبر انعدام الخيارات الآمنة والقانونية في الهجرة النَّاسَ على السّفر في طرق هجرة غير نظامية ليتجنّبوا كشفهم. ونتيجة لذلك، إما أن لا يُبلغ عن الوفيات وإما أن تقع ولا شهود عليها. وفوق ذلك تُصعب التضاريس الخشنة النائية وجدان رفات الناس؛ فرفات عدد لا يحصى من الأشخاص الذين أتت حتوفهم في رحلات الهجرة غير النظامية - وبخاصة المفقودين في البحر - لا تسترجع أبداً.

ثم في الأمر مسألتان أُخرَيان، على أن التغلب عليهما ممكن: أولاً صعوبة الاصطلاح على تعريف إجرائي لاسم «المهاجر المفقود»، وثانياً قلة مصادر المعطيات التي يُعتمد بها ويوصل إليها. وفي جاتحة داء الحمة التاجية (كوفيد ١٩)، صار جمع المعطيات يصعب أكثر فأكثر، فقد نشأت عقبات زائدة من انخفاض الإبء بوفيات المهاجرين في وسائل الإعلام، والعجز عن البلوغ إلى المهاجرين لجمع الشهادات، وإغلاق الحدود الذي يدفع المهاجرين إلى طرق أكثر خفاءً.

من المهاجر المفقود؟

في المنظمة الدولية للهجرة مشروع اسمه مشروع المهاجرين المفقودين، وهو مجموعة معطيات علمية مباحة لتتبع وفيات الناس في طرق الهجرة المختلطة في جميع العالم.^١ وقد سجّل المشروع منذ شرع فيه سنة ٢٠١٤ من الوفيات وحالات الاختفاء في طرق الهجرة ٤٠٥٠٥،^٢ ولا تعريف مصطلحاً عليه لاسم «المهاجر المفقود»، ولكن يحتاج ولا شك إلى تعريف إجرائي لإنشاء قاعدة أدلة.

فأكثر ما يستعمل مشروع المهاجرين المفقودين من المصادر تقارير وسائل الإعلام. ولكن يكثر أن تكون المعلومات التي تنشرها وسائل الإعلام وفيات المهاجرين غير مدققة أو غير تامة، أو أن يساء تفسيرها ويُغالي فيها. ويضاف إلى ذلك، أن الوفيات حين تقع منها أعداد كثيرة في طرق الهجرة المعروفة، مثل طريق البحر الأبيض المتوسط، هي أكثر قرباً إلى أن تُبلَّغَ وسائل الإعلام، وهذا قد ثبت في معطيات مشروع المهاجرين المفقودين صفة الانحياز. وهذه المشكلة إنما تتفاقم حين يركز جزء كبير من نشرات الأنباء همّة في بضع مسائل فقط. ففي سنة ٢٠١٥، كان حظ أزمة خليج البنغال من نشر أنبائها في وسائل الإعلام عريضاً، فزادت معطياتنا زيادةً عظيمة. ووثق مشروع المهاجرين المفقودين موت ٥٧٧ مهاجراً من الروهنغيا في البحر في تلك السنة. ولكن في سنة ٢٠٢٠ سجل المشروع من وفيات البحر ١٦٥ وفاة فقط، مع أن المنظمات غير الحكومية قد أعلنت أن بضعاً وألفاً من الروهنغيا تقطعت بهم الأسباب في البحر شهوراً، مشيرة بذلك إلى أن عدد الوفيات قد يكون أكثر كثيراً من ذلك.

هذا ويستعمل مشروع المهاجرين المفقودين أيضاً مصادر أخرى للمعلومات مثل استطلاع المهاجرين وشهادات الناجين. على أن ما يحدث أخيراً من تشديد الإجراءات على المنظمات غير الحكومية التي تقوم بأعمال البحث والإنقاذ وتدعم المهاجرين بما ينقذ أرواحهم -مثل الذين ينشطون في البحر المتوسط والحدود الجنوبية في الولايات المتحدة- لا يُعزّض حياة المهاجرين للخطر فحسب، بل هو إلى ذلك يعوّق قدرتنا على جمع الأدلة. وأخيراً، يستعمل مشروع المهاجرين المفقودين معطيات الموضوع المنطلق منه في البحر لتعيين الحوادث المحتملة التي يدخل فيها وفيات المهاجرين أو اختفاؤهم في مسالك البحار.

في سنة ٢٠٢٠، زاد تدفق المهاجرين في الممر البحري من الساحل الشمالي الغربي لإفريقيا إلى جزر الكناري الإسبانية زيادةً عظيمة بالقياس إلى تدفقهم سنة ٢٠١٩. وكانت معلومات جنس المفقودين في هذا الممر وسنهم وموضع موتهم أو اختفائهم المحدد قليلة الوجود. ففي سنة ٢٠٢٠، توفي ٨٤٩ شخصاً في الأقل على هذا الممر. وما يزال هناك عدّة حوادث تحدث أن يكون توفي فيه مئات من الناس سيثبت منها مشروع المهاجرين المفقودين ويسجلها، ولكن جمع الأدلة صعب. وبناءً على ذلك، ابتداءً مشروع المهاجرين المفقودين جمع معطيات المنطلقين من ساحل السنغال؛ فبذلك يمكن بعد أن تُقَابَل هي ومعطيات الواصلين إلى جزائر الكناري لحسبان ما يحتمل عرقه من السفن.

يقفوا رحلتهم مؤقتاً أو أن يغيروا وجهتهم لتعود إليهم قوتهم ويعوضوا ما خسروه من المال، وقد يأتي على تمام رحلتهم شهوراً أو سنين. فإن تُوفّي مهاجر أو فقد في أثناء لبثه من لبثاته، فلا يُعدّ وفاته مشروع المهاجرين المفقودين. فيكون من ذلك استبعاد كثير من الحوادث من قاعدة المعطيات لأن إثبات وفاة المهاجر وهو في العبور غير مستطاع.

ومثل ذلك، أن المهاجرين كثيراً ما يقسرون على اللبث يمكن في رحلتهم بسبب سياسات الحكومات التي تقيّد حركتهم. ففي سنة ٢٠٢٠، كانت ما ضرب من قيود على التنقل بغية أن يُحصّر انتشار داء الحمة الناجية (كوفيد ١٩) مُقلِّفاً على الخصوص، فترك آلاف من المهاجرين متقطعة بهم الأسباب في أحوال مُخطّرة، قد تخلو من المعونة الإنسانية، مثل بلوغ الرعاية الصحية.

تُوفّي مراهق من ساحل العاج على متن سفينة جحر صحي في إيطاليا، بعد مرور شهر على إنقاذه من البحر المتوسط. وورد أن نقص الرعاية الصحية على متن السفينة صرّ صحتة إلى حال أسوأ فتوفي في آخر المطاف. ولو جعلت له رعاية صحية أفضل من فور نشله من البحر لأمكن أن تنقذ حياته.

مصادر المعطيات

تجمع وتنتشر بعض المصادر الرسمية المعطيات في وفيات المهاجرين، على أن ما يوجد من المعطيات هو في بعض الأحيان غير مدقّق أو غير تام. إذ يجمع هذه القلة من المعطيات الرسمية في العادة هيئات الحدود وفاحصي الطبّ الشرعي. ولمعالجة عدم عدّ كثير من المهاجرين المفقودين في المعطيات الحكومية، يعتمد مشروع المهاجرين المفقودين على مصادر أخرى، مثل وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، والمنظمات غير الحكومية، والمجتمع المدني، والمنظمات الدولية، والمهاجرين أنفسهم.

يُعيّن مكتب مقاطعة بيما التابع للطبيب الشرعي في أريزونا أسر المهاجرين المفقودين، إذ يفحص الجثث التي لا يُعرف أصحابها ويعثر عليها في نطاق سلطته القضائية، ويُعيّن أياً منها يمكن أن يطلق على أصحابها أنهم «عابروا حدود لا يحملون وثائق رسمية». ومن المعايير التي يتخذها المكتب وجدان الجثة في مسلك من مسالك الهجرة المعروفة، وتطابق متاع الشخص والأشياء التي يحملها المهاجرون عادة، وقدوم هذه الأشياء من المكسيك. فينشأ عن هذا التصنيف اليسير سجل لا يقدر بثمن لوفيات المهاجرين على طول حدود تقع فيها إحدى أعلى معدلات الوفيات. ومنذ سنة ٢٠٠١، سجل المكتب أكثر من ٣٣٩٨ وفاةً من وفيات المهاجرين.^٤

التوصيات

يجب أن تلتزم وسائل الإعلام المبادئ التوجيهية الراهنة في تبليغ وفيات المهاجرين. يمكن أن تكون التقارير الإعلامية أول مشير إلى وفاة مهاجر أو اختفائه، فلها بذلك شأنٌ عظيم في جمع المعطيات. ويجب الكلام في تفاصيل الناس الداخلين في مثل هذه الأحداث كلما أمكن ذلك، مع مراعاة الواجب للموتى ومصالح أسرهم. ووفق ذلك، ينبغي أن تذكر التقارير الإخبارية ما يقيد كل معطيات تنشرها، وذلك لتجنب انتفاء التدقيق أو التفسير المغلوط فيه، وينبغي أن تسعى إلى وصف من تمثله الأعداد من الناس.

أندريا غارثيا بورخا

agarciaiorja@iom.int @agarciaiorja

مُحللة معطيات

جوليا بلاك Julia Black @jblack@iom.int

موظفة في المشروع

مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة

1. <https://missingmigrants.iom.int>

٢. هذه الأرقام تستوعب ما حدث من ذلك في المدة الواقعة بين ١ كانون الثاني/يناير

٢٠١٤ و٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٢١.

٣. Dearden K, Sánchez Dionis M, Black J and Laczko J

F (2019) 'Calculating "Death Rates" in the Context of Migration Journeys'

(حساب «معدلات الوفيات» في سياق رحلات الهجرة)

bit.ly/IOM-GMDAC-Dearden-et-al-2019

٤. خريطة وفيات المهاجرين

bit.ly/35ajDhC

٥. White A and Singleton A 'Mixed messages: Media coverage of

migration and fatalities', chapter 3 in IOM (2017) Fatal Journeys,

Volume 3, Part 1: *Improving Data on Missing Migrants*

bit.ly/2Us5nKQ

(رسائل مختلطة: نصيب الهجرة والوفيات من نُشر أبحاثها)

صحيح أن المتحدّيات التي تتعوق التوثيق كثيرة، ولكن يمكن أن يُفعل شيء كثير لتحسين استيعاب معطيات المهاجرين المفقودين وإتمامها، كما تقترح التوصيات الآتية.

يجب أن تمثل المعطيات التجارب المعيشة التي يخوض فيها الناس في رحلات الهجرة. يجب على الفاعلين الذين يعملون بالتعريفات الإجرائية، مثل تعريفات مشروع المهاجرين المفقودين، أن يصوغوا إرشادات في طرق تكييف منهجيتهم بالحقائق الناشئة في رحلات الهجرة.

يجب على كل الفاعلين العاملين في الأمانة التي تقع فيها وفيات المهاجرين واختفاؤهم أن يجمعوا المعطيات وينشروها. وأيضاً يجب على الفاعلين الذين يجمعون تقارير المفقودين أن يصفوا هذه المعطيات بحيث يمكن أن تُعيّن حالات الاختفاء التي بينها وبين الهجرة صلة.

يجب أن يتشارك الفاعلون في معطيات المهاجرين المفقودين من غير نظر إلى التعريف. يكثر أن تكون معطيات المهاجرين المفقودين متفرقة ومجزأة، وهناك قيمة عالية لجمع مصادر المعطيات المتباينة معاً لتُقابل وتُتحقق.

يجب على الدول أن تتدئ سريعاً جمع معطيات وفيات المهاجرين داخل أراضيها. لا يبعد أن يكون الفاعلون الرسميون يجمعون معطيات الوفيات في طوق ولايتهم القضائية. ويجب على السلطات المحلية والوطنية والإقليمية التي تجمع هذه المعطيات أن تصنفها بحسب حالة الهجرة وأن تنشرها وفقاً لمعايير حماية المعطيات. ويشمل ذلك جمع المعلومات -جمعاً مُدققاً- من المهاجرين فيما شهدوا من وفيات أصحابهم أو اختفاتهم.

يجب أن تتعاون المنظمات غير الحكومية والمنظمات غير الحكومية الدولية والمجتمع المدني على حل المسائل وتوليد الأدلة. من الفاعلين غير الحكوميين من يقود مباشرة مع الناس وهم ينتقلون أعمالاً يبذل فيها الجهد لجمع المعطيات، ويمكن أن يتجني تلك الأعمال معلومات جديدة وأن تزيد احتمال تحقيق المعطيات، ولا سيما في الأحوال التي لا تُسترجع فيها جثث المهاجرين. وينبغي أيضاً أن يُحث على معاونة أسر المفقودين وعلى التعاون فيما بينها، ففي مشاركتها إتيان معلومات مهمة ومعاونة لها على التصدي لصعوبة الخيرة فيما فقدوا.

الحماية في البحر

انظر ما سبق أن نُشر من مقالات في نشرة الهجرة القسرية أُديرت حول هذا الموضوع، وقد جُمعت في قائمة مواضيعية تحت عنوان الحماية في البحر. فإن شئت قراءتها وجدتها متصلة بالشبكة هنا www.fmreview.org/thematic-listings

